﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 75 - 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكرُ سببِ الامتناعِ عن السُّجودِ بعدَ ذِكرِ هذا الامتناعِ

لمّا أخبرَ تعالى بامتناعِ إبليسَ عن السُّجودِ لآدمَ عليه السلام؛ أتبعَهُ السُّؤالَ عن سببِ الامتناعِ، ثمَّ أخبر بجوابِ إبليسَ له[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَالِينَ﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[2]، فالعُلوُّ: ضدُّ السُّفْلِ، ويقالُ: علا يَعْلو عُلوًّا، فهو عالٍ، وعَلِيَ يَعْلَى عَلاءً، فهو عَلِيٌّ[3]، والمرادُ بالعالينَ هنا: المترفِّعونَ عن طاعةِ اللهِ تعالى[4]، أو أصحابُ الشَّرفِ والمكانةِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

توبيخُ إبليسَ على تركِ السُّجودِ

في هذه الآية سؤالُ الله لإبليسَ عن سببِ امتناعِهِ عن السُّجودِ لآدمَ عليه السلام؛ إذ قال تعالى له: أيُّ شيءٍ منعَكَ يا إبليسُ مِنَ السُّجودِ للمخلوقِ الَّذي كرَّمتُهُ، وخلقتُهُ بنفسي؟ أتعظَّمتَ عن السُّجودِ لهُ، فأصابَكَ الكِبْرُ؟ أم كنتَ مِنْ قبلُ ذا عُلوٍّ وتكبُّرٍ على أمرِ ربِّكَ وخَلْقِهِ؟.

ثمَّ أخبرَ تعالى عن جوابِ إبليسَ، وهو أنَّهُ قالَ مدفوعًا بطبعه الناريّ، التي طبيعتُها الاندفاع والإضرار: لم أسجدْ لهُ؛ لأنّي أفضلُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 510.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (علو).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 137.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

منهُ، فأنا مخلوقٌ مِنَ النّارِ، وهو مخلوقٌ مِنَ الطّينِ، والنّارُ أعلى شأنًا مِنَ الطّينِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ، وذلكَ أنَّهُ لمّا امتنعَ إبليسُ عن السُّجودِ؛ كأنَّ سائلًا سألَ، فقالَ: فماذا قالَ الرَّبُّ تعالى عندَ إبائِهِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾[1]، وهذهِ الطَّريقةُ مِنَ الفصلِ جاريةٌ في المقاوَلاتِ والمحاوَراتِ[2].

الفصلُ جارٍ على أسلوبِ المحاورات

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي من فعلِ القولِ في كلامِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ قد تحقَّقَ، ومضَى، كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ الماضيةِ.

بلاغةُ النِّداءِ:

افتُتِحَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ بالنِّداءِ؛ لتنبيهِ إبليسَ وتهْيِئَتِهِ لتلقّي ما بعدَ النِّداءِ مِنَ الكلامِ بنفْسٍ يقظَى وأُذُنٍ واعيةٍ، فالكلامُ كلامٌ خطيرُ الشّانِ، والمقامُ مقامُ توبيخٍ، وهذا يستدعي انتباهَ المُخاطَبِ.

السُّؤالُ عن سببِ تركِ السُّجودِ خطيرُ الشَّأنِ

نكتةُ النِّداءُ بـ (يا):

عُبِّرَ بأداةِ نداءِ البعيدِ (يا) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؛ لِما تشيرُ إليهِ الأداةُ مِنْ بُعدِ المُنادَى عن ساحةِ

إبليسُ في محلِّ البُعدِ والذَّمِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 290.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 302.

القُرْبِ والتَّكريم[1]، فإبليسُ في أقصَى غاياتِ البُعدِ لمخالفتِهِ ما أمرَهُ اللّهُ تعالى بهِ، ولذلكَ استحقَّ الذَّمَّ والتَّوبيخَ والإنكارَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بإبْليس:

إبليسُ يائسٌ مِنَ الخيرِ، بعيدٌ عنِ الرَّحمةِ

عُبِّرَ بإبليسَ دونَ الشَّيطان في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؛ لاشتقاقِ هذا الاسمِ مِنَ الإبلاسِ، وهو البُعدُ مِنَ الخيرِ، واليأسُ مِنَ الرَّحمةِ[2]، ففيهِ تنبيهٌ وتمهيدٌ لِطَرْدِ إبليسَ مِنْ رحمةِ اللّهِ، وهو يُقوّي التَّوبيخَ والدَّلالةَ على البُعدِ المستفادِ مِنْ أداةِ نداءِ البعيدِ، ومِن لطائفِ اختيارِ لفظِ إبليس دونَ الشَّيطان أنَّ الشَّيطانَ يُستَعمل في القرآنِ عند تَعَدّي الأذى إلى الآخرين، أمّا (إبليس)؛ فيُستَعمل عندما يكون أذاه مقصورًا على نفسه، وهذا واضحٌ في سياق قصَّة امتناعه عن السُّجود في كلِّ مواطنِها من القرآن الكريم؛ إذْ لم يُعبَّرْ إلّا بلفظ إبليس؛ لأنَّ العقابَ وقع عليه، وهو الطَّرد من رحمة اللّه.

بلاغةُ العدولِ إلى الإظهار:

استحقاقُ إبليسَ اللَّعنةَ لامتناعه عن السُّجود

جاء التَّعبير القرآنيُّ بذكر إبليسَ مُظهَرًا، وإن كان الظاهرُ أن يُعَبَّر به مُضمَرًا لسَبْق ذكرِه في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ ولكنَّه أعاد ذكرَه تحقيرًا وتهوينًا من شأنه، ولإقامة الحجَّة عليه بامتناعه هو عن السُّجود، فهو المخصوص بذلك دون غيره.

بلاغةُ الاستفهامِ:

ظهورُ قُبْحِ سريرةِ إبليسَ للملائكةِ

الاستفهامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ مجازٌ، وليسَ على الحقيقة؛ لأنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ أنَّ الكِبْرَ هو الَّذي منعَ إبليسَ مِنَ السُّجودِ، بل الغرضُ منهُ هو توبيخُ إبليسَ على تركِهِ السُّجودَ، وإنكارُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421.

هذا الفعلِ عليهِ[1]، وقطعُ معذرتِهِ[2]، وإظهارُ مقصدِهِ للملائكةِ[3]؛ ليعلَموا ما انطوَتْ عليهِ نفسُهُ مِنَ التَّعالي والكِبْرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمنعِ:

الاستكبارُ لا يأتي بخيرٍ

عُبِّرَ بالمنعِ في قولِ اللَّهِ ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾؛ للمبالغةِ في الإنكارِ على إبليسَ، بسؤالِهِ عن السَّببِ الَّذي صرفَهُ وصدَّهُ عن السُّجودِ، حتَّى كأنَّهُ قد حجزَ بينَهما، وفي ذلكَ مِنَ التَّنبيهِ على قُبْحِ الاستكبارِ ما لا يخفى. ويتناسب استعمال مادّة المنع مع طبيعة إبليس وحقده؛ فالمنع في اللغة عدمُ الإعطاء، وإبليسُ قدِ امتنع عن السّجود بسبب ما في باطنه منَ الحرص على منع الخير عن آدمَ عليه السلام وذرّيَّته.

نكتةُ صيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ لأنَّ المانعَ مُتقدِّمٌ على زمنِ توجيهِ هذا السُّؤالِ؛ وفي هذهِ الصّيغةِ أيضًا إشارةٌ إلى عَراقةِ هذا المانعِ - وهو الاستكبارُ - في نفسِ إبليسَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ:

الإنكارُ لتركِ نفسِ السُّجودِ

عُبِّرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ بالسُّجود في قولِ اللَّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ مُتوجِّهٌ إلى نفسِ عدمِ السُّجودِ؛ ولو عُبِّرَ بالمصدرِ الصَّريحِ (ما مَنَعَك السُّجودَ) لربَّما ظُنَّ أنَّ الإنكارَ لحالٍ مِنْ أحوالِ السُّجودِ لا لذاتِهِ، بأنْ يكونَ إبليسُ قد سجدَ، وأخلَّ بشيءٍ مِنْ أحوالِ السُّجودِ. فالمصدرُ المؤوَّلُ أبلغُ في الإنكارِ لإفادتِهِ أنَّ أصلَ السُّجودِ لم يقَعْ، ولدلالته على أنَّ سجود إبليس لم يقع في الحال ولا في الاستقبال؛ وفي هذا إشارة إلى استمرارِ إبليسَ في عدم امتثال أمر الله تعالى.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 513، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 215.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 39.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

عُبِّرَ بالمضارع ﴿تَسْجُدَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ لتصوير حالة الاعتراض وترك السُّجود من إبليس، وهو قادر عليه؛ وفي هذا مزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ لإبليس.

دلالة اللّامِ:

لامُ الجرِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾ للتَّعليلِ؛ أي: (ما منعَكَ أنْ تسجدَ لأجلِ ما خلقتُهُ بيديَّ؛ وفي التَّعبيرِ بها إظهارُ مزيدِ عنايتِهِ تعالى بالسُّجودِ لذاتِ آدمَ عليه السلام.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

أمـرُ الـلـهِ نـافـذٌ
وإنْ لـم تُـدرَكْ
حكمتُهُ

عُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ دونَ (مَنْ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾ لأنَّ (ما) يجوزُ إطلاقُها على آحادِ مَنْ يعقلُ؛ أو لأنَّها مصدريَّةٌ، والمصدرُ هنا غيرُ مرادٍ، فيكونُ واقعًا موقعَ المفعولِ بهِ، أي: (لمخلوقي)[1]؛ أو لأنَّ آدمَ كانَ فخّارًا غيرَ جسمٍ حسّاسٍ، فأُشيرَ إليهِ في تلكَ الحالِ بـ﴿مَا﴾[2]؛ أو لأنَّ المرادَ التَّنبيهُ على ما يوجِبُ طاعةَ اللّهِ، ولو أمرَ بتعظيمِ ما لا يعقلُ، فكيفَ وقد أمرَ بتعظيمِ ما هو عندَ السُّجودِ لهُ عاقلٌ كاملُ العقلِ[3]؟

بلاغةُ التَّعبيرِ بالخلقِ:

عُبِّرَ بالخلقِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لدلالتِهِ على أنَّ خلْقَ آدمَ ليسَ على مثالٍ سابقٍ؛ وفي ذلكَ مزيدُ تعظيمٍ لهُ، ومزيدُ توبيخٍ لتاركِ السُّجودِ لهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جلَّ شأنُهُ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 174.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 398.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.

﴿بِيَدَيَّ﴾ لأنَّ خلْقَ آدمَ قد تمَّ قبلَ هذا الخطابِ، وقبلَ ترْكِ إبليسَ السُّجودَ لهُ.

سرُّ إضافةِ اللهِ الخلقَ إلى نفسِهِ:

آدمُ عليه السلام محلُّ تشريفِ اللهِ وتعظيمِهِ

أضافَ ﷻ الخلقَ إلى نفسِهِ في قولِهِ تعالى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: تكريمًا لآدمَ عليه السلام، ببيانِ أنَّهُ هو سبحانَهُ الَّذي تولَّى خلقَهُ على هذهِ الصّورةِ الكاملةِ. فخاطبَ النّاسَ بما يعرفونَهُ في تعاملِهم، مِنْ أنَّ الرَّئيسَ مِنَ المخلوقينَ لا يباشرُ شيئًا بيدِهِ إلّا على سبيلِ الإعظامِ والتَّكريمِ[1].

نكتةُ ذكرِ اليدينِ وتثنيتِهما:

إبرازُ كمالِ الاعتناءِ بخلقِ آدمَ عليه السلام

ذِكرُ اليدينِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لتأكيدِ إسنادِ الخلقِ إليهِ ﷻ[2]؛ وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لتكريمِ آدمَ عليه السلام وتشريفِهِ، إذ خُلِقَ مِنْ غيرِ توسُّطِ أبٍ وأمٍّ. وتثنيةُ اليدينِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بخلقِهِ ﷻ المستدعي لإجلالِهِ وإعظامِهِ، قصدًا إلى تأكيدِ الإنكارِ وتشديدِ التَّوبيخِ[3]؛ كأنَّه قيل: (ما منعك أن تُعَظِّمَ بالسُّجود مَن هو أهلٌ للتَّعظيم، للعناية الرَّبّانيَّة الَّتي حفَّت إيجاده؟!)[4].

غرضُ الاستفهامِ:

تقريرُ المُذنِبِ بالذَّنبِ توبيخٌ لهُ عليهِ

الاستفهامُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ ليسَ على حقيقتِهِ، لأنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بحقيقةِ الأمرِ؛ بل هو للتَّقريرِ[5]، أي لِحَملِ إبليسَ على الإقرارِ بأنَّ المانعَ لهُ مِنَ السُّجودِ هو الاستكبارُ أو العلوُّ. وفيهِ أيضًا توبيخٌ لهُ وتقريعٌ[6].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 228.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 106.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 236.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 23/ 226.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 107.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 515، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.

سرُّ التَّعبيرِ بالاستكبارِ:

الاستكبار أشدُّ من الكِبر

عُبِّرَ بالاستكبارِ دونَ التَّكبُّرِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ لِما تدلُّ عليهِ صيغةُ الاستفعالِ مِنَ الطَّلبِ الَّذي يفيدُ المبالغةَ في الكِبْرِ، لأنَّ الاستكبارَ أشدُّ مِنَ الكِبْرِ؛ أي: (أطَلبتَ أنْ تكونَ أعلى منهُ، وأنتَ تعلمُ أنَّكَ دونَهُ؟ فأنتَ بذلكَ ظالمٌ)[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

رسـوخُ صفة الـكِـبر في طبع إبليسَ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ لأنَّ الاستكبارَ المُقرَّرَ بهِ قد مضَى، وتحقَّقَ قبلَ زمنِ توجيهِ هذا الخطابِ. وفي هذهِ الصّيغةِ أيضًا إشارةٌ إلى تلبُّسِ إبليسَ بالاستكبارِ وإحداثِهِ لهُ؛ وذلكَ أدعَى للإنكارِ والتَّوبيخِ وإقامةِ الحجَّةِ، وإظهارِ استحقاقِهِ ذلكَ.

معنى ﴿أَمْ﴾:

﴿أَمْ﴾ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ متَّصلةٌ، وهي معادلةٌ لهمزةِ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾[2]؛ والمعنى: (أيُّ الأمرين حملك على عدمِ السُّجودِ؟ أهو ادِّعاؤك العظمةَ؟ أم أنت عظيمٌ حقًّا؟)[3].

نكتةُ فعلِ الكونِ الماضي:

عَراقةُ إبليسَ في طلب الاستعلاء

جيءَ بفعلِ الكونِ الماضي في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ للدَّلالةِ على رسوخِ إبليسَ في طلبِ الاستعلاءِ، وأنَّهُ قد جُبِلَ عليهِ، حتَّى صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهِ الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهُ[4]؛ والمعنى: (أم كنتَ أبدًا مِنَ العالينَ الرّاسخينَ في العُلوِّ؟!)[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 455.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 174، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 423.
(3) التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 406.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 413.

دلالة ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ للتَّبعيضِ؛ فتفيدُ أنَّ إبليسَ بعضُ العالينَ، وهو مندرِجٌ في زُمرتِهم، بل هو رأسُهم الَّذي علَّمَهم الكِبْرَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور:

التّعبيرُ كنايةٌ عن الوصفِ بالعُلوّ

كان مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (أم كنتَ عاليًا)، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ لأنَّهُ أبلغُ، إذ معناهُ: (أم كنتَ مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو العُلوُّ؟)؛ وإذا كانَ مِنَ الفئةِ العاليةِ، فهو عالٍ أيضًا بطريقِ الكنايةِ الَّتي هي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ. يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالعُلوِّ:

إبليسُ مُنغمِسٌ في تكبُّرِهِ

عُبِّرَ بالعُلوِّ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ لتوسيعِ دائرةِ الذَّمِّ لإبليسَ، بتقريرِهِ برؤيةِ نفسِهِ مِنَ الكُبَراءِ المُستحِقّينَ للكِبْرِ[1]، أو مِنْ أصحابِ الشَّرفِ والمكانةِ؛ أي: (أم كنتَ مِنَ العالينَ على آدمَ، فترَى أنَّهُ لا يستحقُّ أنْ تُعظِّمَهُ؟)[2]. وفي هذا كشْفٌ لطبيعةِ إبليسَ الحاقدةِ على آدمَ وإخراجِ كوامنها.

بلاغةُ الاحتباكِ:

الاستكبارُ يدلُّ على العُلوِّ، وبالعكسِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ احتباكٌ، دلَّ فعلُ الاستكبارِ أوَّلًا على فعلِ العُلوِّ ثانيًا، ودلَّ وصفُ العُلوِّ ثانيًا على وصفِ الاستكبارِ أوَّلًا. وسرُّ ذلكَ أنَّ إنكارَ الفعلِ المُطلَقِ مُستلزِمٌ لإنكارِ المُقيَّدِ لأنَّهُ المطلَقُ بزيادةٍ، وإنكارَ الوصفِ مُستلزِمٌ لإنكارِ الفعلِ لأنَّهُ جزؤُهُ، معَ أنَّ إنكارَ الفعلِ مِنْ هذا مُستلزِمٌ لإنكارِ الفعلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

مِنْ ذاكَ؛ فيكونُ كلٌّ مِنَ الفعلينِ مدلولًا على إنكارِهِ مرَّتينِ: تارةً بإنكارِ فعلِ عديلِهِ، وأخرى بإنكارِ وصفِهِ نفسه، والوصفانِ كذلكَ[1].

علَّةُ الفصلِ:

الاستئنافُ بذكرِ جوابِ إبليسَ عن السُّؤالِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ عمّا قبلَهُ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ ممّا سبقَ، كأنَّهُ قيلَ: (بمَ أجابَ إبليسُ اللَّعينُ؟)، فقيلَ: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ الآية[2]. والفصلُ هو ما جرَتْ بهِ العادةُ في طريقةِ المحاوَراتِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الجوابَ قد تحقَّقَ، ومضَى، كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ الماضيةِ.

سرُّ عدمِ ذكرِ الرُّبوبيَّةِ:

شكُّ إبليسَ في حكمةِ اللهِ وعدلِهِ

الظّاهرُ أنْ يقولَ إبليسُ: (ربِّ أنا خيرٌ منهُ)، لكنَّهُ عدلَ عن ذكرِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ: ﴿أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لأنَّ الكِبْرَ قد أخذَ بلِجامِ نفسِهِ، حتَّى شكَّ في حكمةِ اللّهِ تعالى وعدلِهِ، إذ أمرَهُ وأمرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لمخلوقٍ يرَى هو أنَّهُ دونَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

إبليسُ مُتيقِّنٌ مِنْ خيريَّتِهِ

لمّا وقَرَ في نفسِ إبليسَ أنَّهُ أفضلُ مِنْ آدمَ عليه السلام، وأعلى منهُ مرتبةً: عبَّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ للدَّلالةِ على قطعِهِ بخيريَّتِهِ، وأنَّها لا تحتملُ الشَّكَّ عندَهُ، كما هو شأنُ المستكبرينَ بغيرِ الحقِّ، وللدّلالة على أنَّ هذه الخيريَّة في زعم إبليس دائمةٌ وثابتةٌ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 423.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 511.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

غرضُ تقديمِ ﴿أَنَاْ﴾:

إبليسُ يرَى نفسَهُ أحقَّ بالتَّقديمِ

قُدِّمَ ﴿أَنَاْ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لأنَّهُ المُسنَدُ إليهِ، وتقديمُهُ هو الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ؛ ولأنَّ مقامَ الاستكبارِ والتَّعالي يستدعي أنْ يبدأ إبليسُ بنفسِهِ، لأنَّهُ يراها أحقَّ بالتَّقديمِ حالًا ومقالًا. ففي التقديم إشارةٌ إلى أنانيَّة إبليسَ، وحبِّه لذاته، واستصغارِ ما عداه.

سرُّ التَّعبيرِ بالخيريَّةِ:

كِبْرُ إبليسَ جاوزَ الحدَّ

عُبِّرَ بالخيريَّةِ دونَ الأفضليَّةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لأنَّها هي الشّائعةُ في التَّفضيلِ بينَ الأشياءِ، ولِما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ مِنْ توسيعِ دائرةِ الأفضليَّةِ المزعومةِ، إذ الخيرُ في الأصلِ جامعٌ لكلِّ الخصالِ الَّتي يُستحقُّ بها الشَّرفُ والتَّقديمُ؛ وفي ذلكَ مِنَ الإنباءِ عن فَرْطِ الكِبْرِ ما لا يخفَى.

معنى (مِنْ):

(مِنْ) في قولِ اللهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ للابتداءِ، فتفيدُ ابتداءَ الارتفاعِ في الخيريَّةِ؛ أو للمجاوزةِ، كأنَّهُ قالَ: (جاوزتُهُ في الخيريَّةِ)[1].

علَّةُ الفصلِ:

بيانُ سببِ الخيريَّةِ المزعومةِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ عمّا قبلَهُ، ولمْ يُعطَفْ عليهِ: لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ، لأنَّ هذهِ الجملةَ مِنَ الجملةِ السّابقةِ بمنزلةِ عطفِ البيانِ مِنَ المُبيَّنِ في البيانِ والإيضاحِ[2]، إذ فيها بيانُ سببِ ما ادَّعاهُ مِنْ كونِهِ خيرًا مِنْ آدمَ عليه السلام.

بلاغةُ صيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في الفعلَينِ من قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ حكايةً

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 333.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 107، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

عن إبليسَ ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: لأنَّ خلْقَ كلٍّ منهما قد مضَى، وتحقَّقَ قبلَ زمنِ هذهِ المحاوَرةِ.

دلالة ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ حكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ للابتداءِ[1]، أي: خلقتَني ابتداءً مِن نارٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿نَّارٍ﴾:

تعظيمُ إبليسَ شأنَ أصلِ خِلْقتِهِ

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ ﴿نَّارٍ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ حكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ للتَّعظيمِ، بدلالةِ مقامِ استكبارِ إبليسَ واعتدادِهِ بأصلِ نشأتِهِ؛ أي: (خلقتَني مِنْ نارٍ عظيمةِ الشَّأنِ، فهي في غايةِ القوَّةِ والإشراقِ)[2].

غرضُ تقديمِ خَلقِ إبليسَ:

زعْمُ إبليسَ أنَّه أحقُّ بالتَّقديمِ حالًا ومقالًا

قَدَّمَ إبليسُ ذِكرَ خَلْقِهِ على ذِكرِ خَلْقِ آدمَ ﷺ في قولِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: اعتناءً بذكرِ خَلْقِهِ الَّذي يزعمُ أنَّهُ أفضلُ، وأنَّهُ أحقُّ بالتَّقديمِ حالًا ومقالًا. يضافُ إلى ذلكَ ما في تأخيرِ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

دلالةُ عطفِ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾:

تهوينُ إبليسَ مِن شأنِ آدمَ بعدَ اعتزازِهِ بنفسِهِ

قولُ اللهِ تعالى حكايةً عن إبليسَ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ، ونكتةُ هذا العطفِ: أنَّ إبليسَ بعدَ أنْ ذكرَ خَلْقَهُ مِنَ النّارِ على سبيلِ الاعتدادِ بهِ ذكرَ خلْقَ آدمَ مِنْ طينٍ على سبيلِ التَّهوينِ مِن شأنِه، والحطِّ مِنْ منزلتِهِ، ليسلمَ لهُ ما ادَّعاهُ مِنَ الخيريَّةِ.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ اللهِ جلَّ مِنْ قائلٍ حكايةً عن إبليس: ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ للابتداءِ؛ أي: (وخلقتَهُ ابتداءً مِنَ الطّينِ).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.

نكتةُ تنكيرِ ﴿طِينٍ﴾:

استهانةُ إبليسَ بأصلِ نشأةِ آدمَ

تنكيرُ ﴿طِينٍ﴾ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ حكايةً عن إبليس: ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ للتَّحقيرِ، بدليلِ مقامِ استكبارِ إبليسَ، وادِّعائِهِ أنَّهُ خيرٌ مِنْ آدمَ، وأنَّ أصلَ نشأتِهِ أعظمُ؛ والمعنى: (وخلقتَهُ مِنْ طينٍ حقيرِ الشَّأنِ؛ إذ هو في غايةِ الكُدورةِ والضَّعفِ)[1].

سرُّ العدولِ عن الجُمَلِ الاسميّة:

فَـرْطُ خصومةِ إبليسَ ولَجاجِهِ

عبَّرَ إبليسُ بقولِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، ولم يقلْ: (أنا مِنْ نارٍ، وهو مِنْ طينٍ)، معَ أنَّهُ أوجزُ: للدَّلالةِ على أنَّ المماثلةَ بينَهُ وبينَ آدمَ في المخلوقيَّةِ مانعةٌ مِنَ السُّجودِ، فكيفَ إذا انضمَّ إليها خيريَّةُ المادَّةِ؟[2]؛ وفي ذلكَ تنبيهٌ على فَرْطِ خصومتِهِ ولَجاجِهِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بين النّار والطّين:

بيانُ مبنى قياسِ إبليسَ الباطلِ

جاء الأسلوبُ القرآنيُّ بالطِّباقِ بين النّار والطّين في قول الله تعالى حكايةً عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: لبيان شدَّة استكبار إبليس وعناده واستعلائه قياسًا على عنصر المادَّة، دون النَّظر إلى خالق المادَّة، وهو الله ﷻ؛ وفي ذلك إبرازٌ لصورة الاستكبار والعناد من إبليسَ لعَنه الله.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

اختيارُ الألفاظِ المختلفةِ للقصّةِ الواحدةِ بما يوافقُ سياقَ السّورة

تشابهَتْ هاتانِ الآيتانِ معَ قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]، وقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: 32 - 33]، ووقعَ في ألفاظِ السُّؤالِ والجوابِ بعضُ الاختلافِ؛ وقد يقالُ: إذا كانَ هذا في قِصَّةٍ واحدةٍ، ووقعَ في كلامِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 217.

اللّهِ تعالى حكايةُ ما قالَ إبليسُ، وما قيلَ لهُ عندَ عصيانِهِ، فلماذا اختلف الأسلوب مع أنَّ المقصود واحد؟

والجوابُ: أنَّ اقتصاصَ ما مضَى إذا لم يُقصَدْ بهِ أداءُ الألفاظِ بأعيانِها، بل قُصِدَ ذكرُ المعنى، فإنَّ الألفاظَ إذا اختلفَتْ، وأدَّتِ المعنى المقصودَ: كانَ اختلافُها واتِّفاقُها سواءً؛ فقولُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12]، وقولُهُ: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢﴾ [الحجر: 32]، وقولُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾، أقوالٌ ثلاثةٌ، في بعضِ ألفاظِها اختلافٌ، وفي المعنى اتِّفاقٌ. وأمّا قولُهُ هنا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؛ ففيهِ زيادةُ إخبارٍ عن حالٍ لم تكنْ في الآيتينِ السّابقتينِ، ولا ضيرَ في ذلكَ، إذ لم يقلْ عندَهما: إنَّهُ لم يكنْ هناكَ خطابٌ إلّا ما حُكيَ فيهما[1].

ويجابُ أيضًا عن زيادةِ (لا) في آية الأعراف: بأنَّها صِلَةٌ؛ أو بأنَّ المنوعَ مِنَ الشَّيءِ مضطرٌّ إلى ما مُنِعَ؛ أو بأنَّ المعنى: (ما الَّذي جعلَكَ في مَنَعَةٍ مِنْ عذابي؟) أو: (مَنْ قالَ لكَ ألّا تسجدَ؟)؛ أو أنَّهُ لمّا حُذِفَ مِنَ الأعرافِ (يا إبْليسُ) واقتُصِرَ على الخطابِ جُمِعَ بينَ لفظِ المنعِ ولفظِ (لا) زيادةً في النَّفي، وإعلامًا بأنَّ المُخاطَبَ بهِ إبليسُ، بخلافِ السّورتينِ فإنَّهُ صُرِّحَ فيهما باسمِهِ.

ومِنْ وجوهِ الاختلافِ أيضًا: أنَّهُ لم يُذكَرِ النِّداءُ لإبليسَ في سورةِ الأعرافِ لأنَّ خطابَهُ قَرُبَ مِنْ ذكرِهِ في هذهِ السّورةِ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ [الأعراف: 11 - 12]، فحَسُنَ حذفُ حرفِ النِّداءِ والمُنادَى؛ ولم يَقْرُبْ في سورتَيْ ص والحِجر، لأنَّ في ص: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بزيادةِ ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فزادَ حرفَ النِّداءِ والمُنادَى، وكذلكَ في الحِجر، فإنَّ فيها: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 31] بزيادةِ جملةِ ﴿أَبَىٰٓ﴾ [الحجر: 31]، فزادَ حرفَ النِّداءِ والمُنادَى[2].

وأمّا اختلافُ الألفاظِ الَّتي أجابَ بها إبليسُ فهو دالٌّ على أنَّه - لعنه اللّه - قد أدمج في معصيةٍ واحدة ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمرِ، ومفارقةَ الجماعةِ، والاستكبارَ مع تحقيرِ آدمَ عليه السلام. وقد وبَّخه القرآن على كلِّ واحدة منها بما يناسب السّياق في كلِّ سورة، واكتفى بما ذكر في موطنٍ ما بأنَّه كافٍ في التَّوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه[3].

(1) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 571.

(2) الكرماني، البرهان، ص: 116، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 39.

(3) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 571.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»